اصل النبط في البتراء

تابع ما قبلهُ

كنت أقدّر أني انهي هذه المقالة في العدد الماضي من المقتطف ولكنّ الكلام تغافل بي الى اكثر ما قصدت اولاً فاستهوتني حروب نبوخذنصر في اليهوديّة الى ذكر مسائل كثيرة رأيتها تُستنتج من كتابات ارميا النبي التي راجعتها في اثناء كتابتي القطعة المارة . وقد راجعتها لا لانها كتابات مقدسة فقط بل لانها ايضاً كتابات رجل معاصر فينبغي الاعتماد عليها والوقوف بها كما يعتمد على الآثار المخطوطة في الاجر البابلي بل هي من بعض الوجوه احرى بالوثوق من كتابات الاجر التي سطرها ملك بابل عن نفسهِ او سطرها لهُ قوم من مؤرخيهِ لان هؤلاء كانوا يتزلفون الى مرضاتهِ باعظام شأنهِ والاطراء لهُ على ما أتى بهِ سواء كان ما اتى بهِ يستحق الاطراء او لا يستحقهُ على حين ان النبي ارميا لم يدفعهُ الى كتابة ما كتبهُ من اخبار الملك شيءٌ من هذا ولذلك هي كما قلنا احرى بالوثوق من كتابات المعاصرين من اهل بابل ايّ كانوا ومهما كانت صفتهم

كانت بابل في ايام عظمتها الاولى متقدمة على نينوى فلما تقدمتها نينوى عظم عليها ذلك وحاول ملوكها او ولاتها او اهلها مراراً ان يرجعوا بها الى سابق عهدها من العظمة والسؤدد فلم يفلحوا الى ان قام نبوبلاسر فاستغنم فرصة انحطاط الاشوريين وحالف المادين عليهم على ان يكون هو وارث عن اشور وولاياتها في الجزيرة العراقية وجميع البلاد غربي الفرات بل في مصر وبلاد العرب ايضاً فترجع بذلك بابل الى عزها ومكانتها الاولى قبل ان بلغت نينوى ما بلغتهُ في ايام ملوكها العظام الذين كانوا من كبار قادة العصور الخالية

فلما كانت موقعة كركيش وانتصر نبوخذنصر ذلك الانتصار العظيم على فرعون نخو وجيوشهِ رأى في انتصاره ما يحقق لهُ تلك الاماني التي كانت تجول في خاطر ابيهِ فشمّر لتحقيقها وما زال يحارب حتى رأى عاصمتهُ مدينة العلم والغنى والدين والسلطة وبعبارة اخرى اعظم مدينة في تلك الايام فانهُ اخضع لسطوتها الجزيرة العراقية والديار الشاميّة من كركيش الى غزة بما فيهِ بادية الشام من الابلة الى ايلة وجعلها كلها ولايات بابليّة تدين بطاعتهِ وتؤدي اليهِ الجزية

وحارب العرب ايضاً في بلادهم فوطئ نجداً والحجاز واستلحم اهلها من العرب العدنانيين ودوّخ تهامة واليمن وجعلها من ولاياتهِ واسكن قومهُ من تجار البابليين والكلدان في قلب اليمن في مخلاف جهران وحقل قتاب وفي اكثر الفرض البحرية من الشحر الى ابلة فضلاً عن

انهُ اخضع عمان وارض البحرين . وكانت آخر بلاد حاربها مصر فتغلب على اهلها واذلَّم لسطوته ورجع من هناك بالاسلاب والغنائم الكثيرة

وما هو محقق لا يرتاب فيهِ انهُ حارب الادوميين وخرَّب جبلهم سعير . وقد مرَّ بنا اشارة النبيين ارميا وحزقيال الى الادوميين وما توعدهم بهِ من الخراب والدمار على يد نبوخذنصر . فتم هذا الوعيد وكانت جبال عيسو خرابًا وميراثهُ للذئاب البرية في ايام ملاخي (انظر هذا السفر الاصحاح الاول)

لم تطل ايام نبوخذنصر بعد ان دوَّخ مصر حتى مضى في سبيلهِ ولكن لم يقم بعدهُ مثلهُ على بابل وربما لم يقم قبلهُ من هو اعظم منهُ الَّا ان يكون الملك حمورابي

وكذلك لم تطل مدة الدولة البابليَّة بعد وفاتهِ الَّا نحوًا من ثلاثين سنة . غزا الفرس بعدها بابل تحت قيادة كورش فافتتحوا المدينة وافتتحوا بافتتاحها كل الولايات البابليَّة التي كانت لنبوخذنصر لان هذه جميعها خضعت للفرس من غير ان يُرمى طليهم سهم واحد في كل عبر النهر حتى الصوريون كانوا يأتون بخشب الارز من لبنان حسب اذن كورش ملك فارس لهم (انظر سفر عزرا الاصحاح الثالث)

وبقيت لغة الدواوين في الدولة الفارسيَّة على عهدها في ايام نبوخذنصر اي اللغة الاراميَّة فكانت القيود والسجلات والمعاريض تُكتب فيها وتترجم اليها ايضًا . وقد ذكرنا ما ذكرناهُ توطئةً للقول ان هيئة البلاد في فلسطين وشمالي العربيَّة لم تتغير في ايام الدولة الفارسيَّة عما كانت عليهِ في ايام نبوخذنصر بل بقيت على حالها نحو واحدة الى ان قامت دولة اليونان

ولما قام الاسكندر الكبير وغزا مملكة فارس خضعت لهُ امم سوريا وفلسطين التي كانت خاضعة للفرس لم تقم امةٌ منها في وجههِ الَّا الصوريون ثم مات الاسكندر واقتسم قوادهُ البلاد . وكان من جملتهم انتيغونوس وابنهُ ديمتريوس وعلى عهد هذين نحو ٣١٦ ق . م ذكرت مدينة البتراء وكانت حينئذٍ مدينة قوية ذات غنى وتجارة تجاسر دون غيرها من المدن على مقاومة ديمتريوس بن انتيغونوس وكان اهلها يعرفون بالنبطيين وكانوا متميزين عمَّن سواهم من بقية الامم اعني الادوميين والموابيين والعمونيين والعرب واليهود . وواضح مما ذكرناهُ سابقًا انهم اي النبطيين لم يكونوا في البلاد ايام الفتح البابلي ولا استجدُّوا فيها على عهد الدولة الفارسيَّة فلم يبقَ لنا الَّا القول انهم نزلوا البتراء في ايام نبوخذنصر وانهم جاءوا من بابل وجوارها لان لغتهم كانت اللغة الاراميَّة

ولننظر الآن لما يؤيد هذا المدَّعى ولا بدَّ في تأييدهِ من الاستناد على سند تاريخي

وهذا السند لا تعدمهُ في اسفار المكابيين فان السفر الاول من هذه الاسفار يذكر لنا الانباط في ايام يهوذا المكابي واليك ما جاء اصاحب هذا السفر

قال في الاصحاح الخامس والعدد ٢٤ و٢٥ ما نصهُ

واما يهوذا المكابي ويوناثان اخوهُ فعبرا الاردن وسارا مسيرة ثلاثة ايام في البرية فصادفا النبطيين (النباطيين) فتلقوهما بسلام وقصوا عليهما كل ما اصاب اخوتهما في ارض جلعاد وان كثيرين منهم قد حُصروا في بصرة وباصر وعليم وكسفور ومكيد وقرنايم وكلها مدن حصينة عظيمة وانهم ايضاً محصورون في سائر مدن ارض جلعاد والقوم مستعدون لمحاصرتهم غداً في الحصون والقبض عليهم وابادتهم جميعاً في يوم واحد — الى ان يقول فارسل يهوذا رجالاً يكشفون امر الجيش فاخبروهُ قائلين ان جميع الامم التي حولنا قد انضمت اليهم وهم جيش عظيم جداً وقد اسأجروا العرب يظاهرونهم ونزلوا في عبر الوادي

وجاء ايضاً في الاصحاح ٩ والعدد ٣٣ — ٣٥ وبلغ ذلك يوناثان وشمعان اخاهُ وجيع من معهُ فعبروا الى برية نقوع ونزلوا على ماء جب أسفار وارسل يوناثان يوحنا اخاهُ بجماعة تحت قيادته يسأل النبطيين اولياءهُ ان يعبروهم عدتهم الوافرة

والذي يظهر من الاعداد التي ذكرناها ، اولاً ان النبطيين كانوا اولياء ليهوذا المكابي واخوتهِ . ثانياً لانهم امة غير العرب وغير المواليين والعمونيين والادوميين . ثالثاً ان مركزهم كان بعد ثلاثة ايام في البريَّة شرقي الاردن من حيث عبر المكابي يقرب اريحا . رابعاً ان قد كان عندهم عدة وافرة يمكنهم الاستغناء عنها واعارتها . وكل ذلك يشير الى انهم كانوا في البتراء قرب بصرة او باصر لان هذه المسافة اي ثلاثة ايام لا تنطبق على مدينة غير البتراء ويشير ايضاً الى انهم كانوا تجاراً لان عندهم كثيراً من الاسلحة يستطيعون ان يعبروها

ومن يراجع سفر المكابيين في الاصحاح الخامس يرى ان اول مدينة وصلها يهوذا واخوهُ بعد ان تركها اصحابهم النبطيون كانت مدينة باصر او بصرة ثم انصرفا من هناك الى المصفاة وهذا لا يدع مجالاً للشك ان النبطيين كانوا في البتراء لان باصر او بصرة العرب مدينة اليها اذا توجه اليها جهة البريَّة

ثم يظهر لنا من مراجعة تاريخ يوسيفوس انهُ كان يعتمد على سفر المكابيين وقد تابعهُ حرفاً بحرف ومآل هذه المتابعة انهُ كان يعرف النبطيين المشار اليهم وانهم قوم متميزون عن الادوميين والعرب والعمونيين وكتاباتهُ صريحة ان البتراء كانت مدينتهم وانهم ما زالوا على استقلالهم عن العرب الى ايام اسكندر جانيوس ثم ارستوبولوس بن يوحنا هركانوس ابن

معان اخي يوناثان ويهودا المكابي مات بعد وفاة هذا الملك اليهودي ورد اول ذكر يهم منهُ ان الانباط او النبطيين في البتراء خضعوا للعرب وكان لارتياس سكهم قصر فيها اي في البتراء . ومن ذلك الحين فما بعده اخذ ملوك العرب الارتياسيون اي الذين اسماء ملوكهم اغلبها ارتياس او حارثة يُلقبون ملوك النبط ويُطلق عليهم تارة لقب ملك العرب واخرى ملك النبط ومع ذلك كان ظاهرًا جليًّا ان الجنسيَّة مختلفة بين العرب والنبط وإن كان الملك واحدًا . وما زال الامر كذلك الى ان انقرض ملك هولاء من البتراء وجُعلت ولاية رومانية سنة ١٠٥ بعد المسيح

ماذا يعرف مؤرخو العرب عن النبط

يعرف العرب ومؤرخو العرب ان النبط غير العرب وانهم كانوا يسكنون ارض البحرين وسواد العراق وأن كان منهم قوم يعرفون بانباط الشام وانهم كانوا في عمان ايضًا وفي قلب البلاد اليمنيَّة في حقل قتاب واعالي جبران اما في عمان فاستعربوا واما في ارض البحرين فمع ان العرب ازالوهم من هناك وسكنوا مكانهم في غير البحرين وذلك في بدء التاريخ المسيحي او قبلهُ بمدةٍ غير معروفة الاَّ انها ليست طويلة عاد الانباط فكثروا في ارض البحرين حتى غلبت نبطيتهم على عروبة العرب وعليهِ المثل المشهور المتواتر عند العرب اهل عمان نبط استعربوا واهل البحرين عرب استنبطوا . وفي اول الفتوحات الاسلامية كانوا يسمون الموالي ايضًا وكانوا في سواد العراق من البصرة الى الكوفة

وكان اكثر اصحاب الصنائع وارباب التجارة هناك منهم واشتهر بعضهم بالبخل وقرض الاموال بازاء لرؤساء القبائل العربيَّة واشتغل بعضهم بالعلم والفقه وكان منهم كثيرون من علماء النحو واللغة واستقضي منهم جماعة منهم نوح بن درّاج . وكانوا يعيّرون بجهل انسابهم وعليهِ يروى الحديث عن الامام عمر بن الخطاب لا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن نسبهِ قال انا من بلد كذا . وبالاجمال نقول ان العرب يعرفون الانباط معرفة تامة لا اشتباه فيها منذ اوائل التاريخ المسيحي الى اليوم وليس منهم من يشبَّهُ عليهِ الفرق بينهم وبين العرب . لكن ليس من ينكر ايضًا ان الانباط هم والعرب من القبيلة السامية فان العرب يرجعون الى سام عن طريق يقطان بن عابر بن شالح بن ارفكشاد والنبط يرجعون اليهِ رأسًا فانهم اولاد ارام بن سام وقد اختلط هؤلاء الاراميون من عهد بعيد جدًّا بالعرب وامتزجوا بهم في الديار البابلية فانقلب العرب هناك انباطًا وانقلب النبط في شبه جزيرة العرب عربًا . قيل ويرجح هذا القول ان الكلدان في عهد نبوخذنصر كانوا عربًا سكنوا بلاد

بابل ويظن البعض ان لفظ الكلدان محرف عن بني خالد قبيلة لا تزال عربا الى حد هذه الساعة في تلك الجهات قرب الحفير وما يجاورها

عود على بدء

قام نبوخذنصر على عرش بابل نحو سنة ٦٠٧ قبل المسيح فوجه غزواته الى الحجاز ونجد واستلم العدنانيين هناك حتى كادوا يفنون وضرب الادوميين وخرب جبلهم سعير واخذ منهم مراكزهم التجارية التي كانوا اقاموها بين ايلة وخليج فارس وكان قبل ذلك حارب ابناء عمهم في اليهودية واجلا قسما كبيرا منهم الى بلاد بابل وهرب كثيرون ممن بقي الى ارض مصر فقل الساكن في بلادهم وكانت اخصب بالطبع من اكثر اراضي ادوم فانتقل كثيرون من الادوميين وسكنوا في جنوبي يهوذا الى مدينة حبرون المعروفة اليوم بالخليل ولما اشتد عليهم نبوخذنصر واخذ مدينتهم سالع (البتراء) وما سواها من المراكز التجارية في تيماء والحجر تهارب كثيرون من وجهه وسكنوا في اليهودية ايضا وخلت بلادهم من كثيرين منهم . وقد الحفا ان نبوخذنصر كان تاجرا وملك قوم تجار وانه قصد ان يحول وحول طريق التجارة عن ايلة والسويس الى عاصمة بلاده . فمن المستحيل اذن ان يخرب المراكز التجارية بين خليج فارس وشواطىء المتوسط فلا بد اذن من ان يكون بعد حروبه في شمالي العربية قد اسكن هذه المراكز افواما لا يخاف عاديتهم ومن غير العرب الذين حاربهم ايضا وكاد يفنيهم وليس من يقوم بهذه المهمة قياما احسن من قومه التجار من بابل وجوارها تجاهوا واستوطنوا تلك الجهات ومن جملتها الحجر وتيماء والبتراء وغير هذه من المراكز التجارية البرية وعلى سواحل البحر الاحمر وخالطهم في جميع هذه المراكز ضعفاء الادوميين اصحابها الاولين وبعض العرب ولعل الادوميين كانوا اكثر عددا او يماثلون النبط الا ان العز والصولة كانا للنبط لان الدولة منهم والتجارة في ايديهم . وما زالوا كذلك كل ايام نبوخذنصر وايام خلفائه الى ان قامت الدولة الفارسية فلم تتعرض لهم وتركتهم وشانهم وحكمهم حكم غيرهم من الامم الخاضعة لهم . بل كان الفرس من جهة غيرا لهؤلاء التجار المتمرة من النبط من نفس دولتهم البابلية لان الفرس لم يكونوا تجارا فلم يزاحموهم على تجارتهم وضمنت تجارة بابل بما كان من اقتتال دار الملك عنها فقلت مزاحمة اهلها لهم واصبح قسم عظيم من التجارة ينقل رأسا الى محطاتهم التجارية من غير ان يمر على بابل اي رأسا من خليج فارس فكثر غناهم مع الايام وعلى نسبة ذلك زاد من قوتهم واصبح العرب حملة تجارتهم ومصرفين بامرهم . وانتقل اليهم عز الادوميين وسلطتهم واصبح كثير من

قبائل العرب ينفرون على صراخهم اذا استصرخوهم وبقوا على ذلك نحواً من ٢٠٠ سنة ولما احتك بهم القائد اليوناني انتيغونوس وابنه ديمتريوس بعد موت الاسكندر وجدهم على ما وجدهم عليه من القوة ووجد الوقا من قبائل العرب حواليهم ينفرون معهم اذا استنفروهم وبقوا على عزهم هذا حقبة من الدهر الا ان الايام لا تدوم على حالة واحدة فان النبطانية قاموا في مصر واصبحت تراثاً لهم فوجهوا عنايتهم الى البلاد فازدادت ساكنًا وازدادت عليه وصناعة وتجارة فاصبح كثير من موانئ البحر الاحمر في ايديهم وغيروا خطة التجارة شيئاً عما كانت عليه فتحوّل قسم كبير من التجارة عن البتراء وكذلك اضطربت الاحوال في بابل والجزيرة وخليج فارس وكثرت الحروب والخاصمات هناك وقامت سلوقية تزاحم بابل على التجارة فضعف شأنها نوعاً عما كان عليه قبلاً . وفوق ذلك انشأ ملوك سوريا في انطاكية خطاً تجارياً من العراق الى مدينتهم فقلّل هذا شيئاً من اهمية البتراء وقلّ غناها على نسبة ذلك فقلّت قوتها. وعادت العرب فكثرت في البلاد حولها في بلاد مواب وبني عمون وما بين غزة وجبال الشراة والظاهر ان كثيرين من عرب اليمن وحضرموت من قبائل قضاعة هاجروا في بداية المئة الاخيرة قبل المسيح الى جهات فلسطين وسوريا فاصبح لهم شأن وشوكة واجتمعت حولهم كلمة العرب لما اعتادوه العدنانيون من الانقياد اليهم فاضعف ذلك من سطوة البتراء ونفوذ تجارها ورؤسائها وخالط رؤساء العرب هؤلاء اهل البتراء لانهم اهل حضارة مثلهم وعمّروا قصورهم في مدينتهم فكانوا يقرون سنة بعد سنة ويكثرون واولئك باقون على ما كانوا عليه ان لم نقل انهم كانوا يضعفون وما زالوا كذلك حتى كثر العرب النبط واصبحوا ذوي السؤدد والرئاسة دونهم وانتقل اليهم الامر فاصبحوا ملوكاً عرفوا بملوك النبطيين في البتراء ولا يبعد انهم كان لهم ملك خاص قبل ان استولوا على البتراء وجعلوها عاصمة لهم في ايام ارتياس معاصر بيبوس القائد الروماني المشهور بل لا يبعد انهم استولوا على هذه المدينة قبل زمن بيبوس فكان لهم رئاسة وسؤدد فيها ولكن لم يكن لهم ملك على شاكلة ما كان لهم في ايام ارتياس هذا ومن جاء بعده الى ان انقرض ملكهم في سنة ١٠٥ قبل المسيح كما مرّ.

وخلاصة ما نختم به بحثنا هذا ان الانباط خليط من الادوميين وتجار من الكلدانيين والبابليين الذين جاءوا الى البتراء في ايام نبوخذنصر وانضم اليهم من حين الى آخر من تحضّر حواليهم من العرب العدنانيين اولاد اسماعيل ثم انضاف الى هؤلاء كثيرون من مشايخ ورؤساء القحطانيين من بني قضاعة الذين هاجروا من اليمن وحضرموت في اول المئة الاولى قبل المسيح او ما قبل ذلك بمدة قصيرة . ولا يبعد ان يكون انضم اليهم ايضاً كثيرون من

اليهود كانوا يسقطون اليهم من حين الى آخر للتجارة تارةً وللاحتماء بهم تارةً اخرى فان الذين سكنوا المدينة وجهات خيبر وكثروا هناك لا يستبعد عليهم ان يسكنوا في البتراء ايضاً فامتزجت كل هذه القبائل معاً في مدينة البتراء وعُرفوا بالنبط الاَّ اني ارجح مما مرَّ ان الدم الغالب فيهم هو دم العشيرة الارامية عشيرة ابرهيم الخليل - ومن البتراء انتقلوا الى مكة والطائف ومنهم نشأت بيوت من اعظم بيوتات العالم كما سنبين ذلك في المستقبل ان شاء الله

جبر ضومط

سوانح وبوارح

بكيتُ حتى هوى من اثلي القلمُ ... وكدتُ اجري ويجري والدموعُ دمُ
ابكي على الظعن لا رسم ولا طللٌ ... واندب الركب لا ربعٌ ولا خيمُ
ان الربوع ربوع القوم من مضرٍ ... تضاءلت بعدها الاطلال والرسمُ
رسم محيلٌ وآثارٌ مصردةٌ ... اقوى بها الاقوبان الدهر والقدمُ
اخفى عليها الذي اخفى على لبدٍ ... حتى استوت عندها الاجراع والاكمُ
اعيتُ فيها اناتي الشرق مضطرباً ... والقلب مصطهرٌ والجسم مضطرمُ
استنزف الحم الدكناء من كبدي ... فتخيل دماً في اشيني الحممُ
تغلي مراجل اضلاعي فانذفها ... هذا البخار وذاك الباخر الرذمُ

استنشد الكتب لا صنع ولا كتبٌ ... وانشد العلم لايان ولا علمُ
يا شرق شرق العلى رُحماك هل بليت ... تلك المدارك او ابلى بها الهرمُ
تلك المدارك كان الدهر دائرةً ... ومن عُ اطلسها الدوّار لا القممُ
تلك المدارك كان الشرق ناحيةً ... ومن دويتها الوطفاء لا الديمُ
هذي المعاهد فانطق هيا كلها ... تجبك "حالاً" ولكن نطقها بكمُ
لُفي على الشرق او لفي على امم ... كانت تدين لها الاجيال والامُ

تقسم الدين فيما بينهم قسماً ... واي دين به الابناء تقتسمُ
لو كان ما عوّروهُ اليوم دينهمُ ... لم يتبع الدين فيما قد مضى نسمُ